

الفصل الثامن

المهدي المنتظر

عقيدة المهدي من أهم ما عند الشيعة خاصة الاثنى عشرية وتعنى أن الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري الذي ولد عام ٢٥٥ هـ وتوفي ٢٦٠ هـ في السنة التي توفي فيها والده الإمام الحسن العسكري اختفى ولم يمت، ونزل في سرداب، ولم يخرج منه، وسيظل مختفيا حتى يظهر بشخصه في زمن ما في المستقبل، ليملاً الأرض عدلاً، بعد أن ملثت جوراً وظلماً، ويقتص لآل البيت ممن ظلمهم، وأخذ الحكم منهم. وسموا هذا المختفى بـ «المهدي المنتظر».

وعلقوا آمال الناس من أتباعهم. ولا سيما من يحسون الظلم بظهوره، وجعلوهم يتجمعون عند السرداب الذي قيل إنه نزل فيه «وعمره خمس سنوات» واختفى، حيث كان مع والده في بلدة «سامراء» شمال بغداد.

وهي مدينة «سر من رأى» التي كانت عاصمة أيام الخلفاء العباسيين، واتخذها الإمام الحسن مقراً له، ودفن بها عام ٢٦٠ هـ مع والده الإمام علي الهادي (ت ٢٥٤ هـ) ابن الإمام محمد الجواد (ت ٢٢٠)، ومع الإمام الحسن دفنت زوجته «نرجس خاتون»، وأم الإمام محمد المهدي، وعمته «حليمة خاتون» أخت الإمام علي الهادي.. كلهم في مشهد واحد كان في الأصل داراً لهم يقيمون بها، يسمى بالمشهد العسكري الآن، وقد اشتهر بالعسكري نظراً لإقامته في مدينة «سر من رأى» وكان الجيش العباسي يعسكر فيها.

وحول القبة ساحة كبيرة مرصوفة بالرخام الأبيض، وفي جانب منها نحو الغرب وشمالها قليلاً يقع السرداب الذي قيل إن الإمام محمد المهدي الطفل نزل فيه واختفى، ولم يخرج منه.. وهو يقع تحت جانب من المسجد الكبير الذي تقام فيه الصلوات، وكان بينه وبين بيت الإمام الحسن قديماً سرداب يمشى فيه إلى المسجد حين الصلاة. وليس له وجود الآن.. ولعل السرداب الموجود الآن والذي قيل عنه. إن المهدي اختفى فيه هو جزء منه، والتساؤل، كيف اخترعت عقول الوسط الإمامي الشيعي حكاية الطفل الإمام الذي اختفى والمسمى محمد المهدي؟

فهو أولاً طفل لم يتعد الخامسة من عمره يقال عنه ، إنه إمام ، لأنه من ظهر إمام ، والإمامة نور في الأصلاب تنتقل إلى الذرية!! كما يقولون ولم يكن للحسن العسكري الإمام إلا هذا الطفل ، وإن كان بعض المؤرخين يشككون في وجوده أصلاً.. لكن هذا الطفل الإمام الذى تسبغ عليه كل خصوصيات ومزايا الإمام التى عرفناها سابقاً ، مات فى السنة التى توفى فيها والده . وانقطعت بذلك سلسلة الإمامة .. فلم يعد لهؤلاء الشيعة الموسوية الكاظمية الملتفين حول هذه السلسلة من الأئمة من يتعلقون به كإمام ، ويلتفون حوله ويتجمعون.. بينما هناك من الشيعة الإسماعيلية المنافسة لهم من يلتفون حوله ويسبونهم إمامهم . ظاهراً أو مستوراً.. وهم غرماء الشيعة الاثنى عشرية.. فهل ينفُضون وينفُطون هكذا وبسهولة ، دون إمام يجمع وحدتهم؟

هنا تفتقت الأذهان عن حكاية تقول إن الطفل محمد المهدي لم يمت . وإنما دخل فى سرداب أبيه الذى كان موجوداً ، واختفى ولم يعد.. وهو حى . وسيبقى حياً إلى أن يعود . متى؟ لم يحددوا ، ولكنهم وصفوه عند عودته بأمل عريض هو أنه سيملاً الأرض عدلاً ، بعد أن تمتلئ بالجور والظلم ، وينصف شيعته ويقتص ممن ظلمهم.. هكذا رسموه.. لتظل القلوب متعلقة بإمام ولو غائباً ، متجمعة حوله ، وإن كان غير موجود ، متعلقة بأمل عزيز ، ولو كان أوهى من خيط العنكبوت ، لكنه أمل يجمع العقد الذى كاد ينفرط . حتى كانوا وظلوا يذهبون قروناً ، إلى المكان الذى اختفى فيه ، ينادونه . ويدعون ، أن يجعل الله فرجه ، وأن يخرجهم لهم لينقذهم مما يعانون.. ونجحت الفكرة تماماً ، وجمعت الأتباع ، وحشدت لها كل الطاقات العقلية وغير العقلية لزرعها فى النفوس.

وبالرغم من مرور القرون ، ومن تفتح العقول وتقدمها ، لا تزال هذه العقيدة كما هى أساس المذهب الاثنى عشرى ، وقد نشر العالم الشيعى العراقى الكبير الأستاذ «محمد باقر الصدر» بحثاً حول المهدي^(١) قال فيه إن الإمام الطفل اختفى وغاب عن الأنظار فى أول الأمر ، غير أنه كان دائم الصلة بقواعده من الشيعة ، عن طريق وكلائه ونوابه الأربعة ، واحداً بعد الآخر ، حيث كان النائب يحمل إليه منذ غاب أسئلة الشيعة ومشاكلهم – وهو طفل – ويحمل إليهم أجوبته . شفوية وتحريرية.

ووجدت الجماهير عزاءها فى هذه المراسلات والاتصالات التى قيل إنها كانت تتم بواسطة هؤلاء الأربعة واحداً بعد الآخر لمدة سبعين عاماً ، هى عندهم ، الغيبة الصغرى للإمام الغائب!

(١) طبع ١٣٩٨ م . مطبعة أوفست الميناء بغداد.

بعدها انتقل إلى الغيبة الكبرى. بعد أن أصبحت الجماهير مستعدة لتقبل فكرة النيابة العامة عن الإمام الغائب، وبهذا تحولت النيابة من أفراد مخصوصين، كان يعينهم من مقر غيبته، إلى خط عام، وهو خط المجتهد العادل البصير بأمور الدنيا والدين^(١) دون حاجة للتعيين من الإمام الغائب!

وهكذا انفتح الباب للنياية عن الإمام الغائب، ومباشرة سلطاته، لكل ما يقال عنه، إنه «المجتهد العادل البصير» تخضع له الشيعة، كما تخضع للإمام لأنه نائبه! وكم هناك من مجتهد عالم بصير، وباب الاجتهاد عندهم مفتوح، وما أكثر المجتهدين وما أكثر نواب الإمام كذلك!

ويتساءل المتسائلون بحق: لو أن هذا الإمام الطفل عاش، ولم تنقطع سلسلة الإمامة، هل كان أحد يدعى مثل هذا الادعاء؟

وهل ادعاء غيبة الإمام وإلى الآن ولما بعد الآن، وأنه يحكم العالم أثناء غيبته بواسطة نوابه فيه صلاح الدين والدنيا؟

والذين ليست لهم إمامة غائبة أو حاضرة هل ضلوا الطريق وخسروا دنياهم وآخرتهم؟ وهل الذين لهم إمام ظاهر أو غائب، ويسيروا تبعاً لهديه أو هدى نوابه، هل حققوا بفضل الإمام أو نائبه صلاح دنياهم وآخرتهم أكثر من غيرهم؟

وهل يتوقف صلاح الدين والدنيا على وجود إمام يحكم من ذرية الإمام علي والسيدة فاطمة رضي الله عنهما، أو أن القرآن والحديث كافيان جداً في هذا، كما قال رسول الله ﷺ «تركتم فيكم ما إن تمسكتكم به لن تضلوا بعدى أبداً، كتاب الله وسنتي»؟ وهل الذين أقاموا الدول الإسلامية في المشرق أو في الأندلس من غير الشيعة، وأسسوا الإمبراطورية الإسلامية، وحققوا العزة للمسلمين، وقامت في أيامهم الحضارة الإسلامية المزدهرة. هل هم مخربون ضالون، ونكبة على الإسلام والمسلمين كما يقول الشيعة؟ وهل الدولة الفاطمية التي قامت في ظل إمام ظاهر من الشيعة الإسماعيلية، هل حققت هذه الدولة وقد حكمت شعوب المنطقة الإسلامية العربية غرباً وشرقاً مدة طويلة، هل حققت هذه الدولة بإمامها الظاهر الذي كان يقودها ويوجهها، الحكم المثالي الديني والدنيوي للشعوب التي حكمتها؟ أم أن الشعوب ابتليت بهذا الحكم وامتحننت في حياتها امتحاناً عسيراً؟!

(١) راجع المصدر السابق ص ٦٩ وما بعدها.

ثم ماذا فعلت أختها «دولة القرامطة الإسماعيلية فى البحرين وشرق الجزيرة والبلاد التى حكمتها بإمام معظم من الشيعة؟ وتاريخها يحوى صوراً من الفساد والإجرام والظلم والعبث ما يثقل ضمير أصحاب الضمائر؟ وهل نزعهم الحجر الأسود من مكانه، وأخذه إلى عاصمة الدولة أمر مقبول دينياً أو دنيوياً؟

ومن المعروف أن الشيعة الاثنا عشرية كانوا يعيشون فى سلام، وكانوا موضع احترام من الخلافة ومن أتباعهم.. ولم يكن هناك أى سبب سياسى أو أمنى، يدعو هذا الطفل إلى الاختفاء حياً فى سرداب، لكنه مات عام ٢٦٠هـ فى عهد المعتمد هو وأبوه الإمام الحسن ودفن بجانبه دون أن يكون هناك من الذرية من تسند له الإمامة.. ولذلك انفض كثير من أتباع الاثني عشرية عنهم، إلى فرع آخر من فروع جعفر الصادق، هو فرع الشيعة الإسماعيلية الذى انتعش بانقراض الفرع الموسوى، الاثني عشرى^(١) بوفاة هذا الطفل.

وإزاء هذا اخترع كبار التابعين للاثني عشرية أن الطفل الإمام اختفى، وهو باق إماماً لهم. حتى يعود.. الخ.. ليحتفظوا بمن بقى من أتباع الاثني عشرية، وليظل المذهب حياً سائداً.

وقد كان تدبيراً محكماً أثمر فعلاً ثمرته، فظل الكثيرون على ولائهم للمذهب، وللإمام كما نرى الآن. برغم غرابة هذا الادعاء الذى لم يكن له مبرر إلا المصلحة الخاصة. إذ أن الشيعة يعتقدون أنه لا بد من إمام لهم معصوم، يبلغهم الشريعة عن الرسول.. الخ.. ولذلك لما مات الطفل الإمام، توجه بعضهم إلى إمام آخر من الإسماعيلية والإيمان به، وكان الإسماعيلية يدعون أن لهم إماماً ظاهراً أو مستوراً خوفاً من الحكام.. لكن له نائب ظاهر ينوب عنه، ويقود أتباعه، ويوضح لهم دعوته.. ولذلك أخذت الشيعة الإسماعيلية تقوى بالذين انفصوا عن الاثني عشرية، لكن ما لبث الاثنا عشرية أن استردوا قوتهم بهذا الادعاء، الذى وجد تصديقاً فى الوسط الشيعى الاثني عشرى.. واستمر المذهب على عقيدته فى الإمام المختفى.

وفكرة الاختفاء والعودة سبق أن قال بها الحبر اليهودى ابن سبأ الذى أسلم أيام عثمان رضي الله عنه عندما أعلن أن النبى ﷺ سيرجع، وأنه ليس أقل من عيسى، ثم أنكر أن علياً رضي الله عنه قد مات، وأنه لا يزال حياً، وسيرجع وينتقم من خصومه... وبالرغم من أنها أفكار غريبة جداً على الإسلام: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، وأن أحداً من الناس لن يحيا ويرجع للدنيا قبل يوم القيامة.. لذلك كانت فكرة ابن سبأ فى الرجعة غريبة كل الغرابة عن الوسط الإسلامى حين

(١) ارجع إلى تاريخ الخضرى ص ٢ ص ٢٩٨.

ألقاها، ولكن يظهر أنها علقت ببعض الأذهان، ووجدت من يستغلها لمصلحته ويدعى أن هذا أو ذاك سيعود ويرجع، وينتقم من خصومه.. ويملاً الأرض عدلاً سواء كانت عودته من موت أو من غيبة عن الأنظار.

وأول من استغلها هم أتباع محمد بن الحنفية من الفرقة التي أطلق عليها «الكيسانية» نسبة إلى كيسان مولى الإمام على، وهي فرقة تزعمها المختار بن أبى عبيد الثقفى. وسمى بالكيسانى. فلما مات محمد بن الحنفية عام ٨١ هـ، عز عليهم أن يموت فادعى أنصاره أنه اختفى فى جبل رضوى، وسعود.

كما عز على أتباع الحسن والحسين أن يؤول الأمر نهائياً إلى الأمويين، ورأوا أن ذلك سيزرع اليأس فى نفوس المتعلقين من الشيعة بذرية على من السيدة فاطمة فاخترعوا فكرة المهدي الذى سيظهر ويستولى على الحكم. لتظل نفوس الشيعة متعلقة بعودته. وقد وضعوا بعض الأحاديث النبوية التى تؤيد هذا.. وأشاعوها ليحاربوا بها بنى أمية.

لكن بنى أمية قابلوا هذه الحرب الدعائية بحرب دعائية من جنسها. يقول الأستاذ أحمد أمين^(١): «ورأينا للبيت الأموى مهدياً آخر، لا يسمى المهدي، ولكنه يلقب بالسفياني، وذاعت أخباره فى البيئات الأموية وغيرها، وكان السفياني المنتظر، كالمهدي المنتظر، قال فى الأغاني عن مصعب: كان خالد بن يزيد بن معاوية يوصف بالعلم. ويقول الشعر. وزعموا أنه هو الذى وضع خبر السفياني وكبره، وأراد أن يكون للناس فيه طمع، بعد أن غلبه مروان بن الحكم على الملك، وتزوج أمه إلخ.. ويقول: «ومن أظرف ما حدث أنه لما قال الشيعة بالمهدي، وقال بعض الأمويين بالسفياني، وضع بعض الشيعة الأحاديث بأن المهدي إذا خرج سيقا تل السفياني، إذا خرج» فسيبايع الناس المهدي بمكة بين الركن والمقام، ثم إن المهدي يقول: «أيها الناس اخرجوا لقتال عدو الله وعدوكم» ويقول: «ويظهر أن العباسيين أيضاً بعد ذلك عز عليهم ألا يكون لهم (مهدي)، فوضعت الأحاديث على هذا النمط» رواها الطبراني ورواها الحاكم وغيرهما..

وينتهى الأستاذ أحمد أمين إلى القول: «فترى من هذا أن عقيدة المهدي فشلت فى العلويين والأمويين والعباسيين، وأخذت عند كل منهم لونا خاصاً»، وكان لها أسباب سياسية واجتماعية ودينية.. لكنه يرى أنها نبتت من الشيعة، وكانوا هم البادئين باختراعها، وذلك بعد خروج الخلافة من بين أيديهم وانتقالها إلى الأمويين ص ٢٤١.

(١) ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٣٨ طبعة أوى.

وكان من الغريب أن بعض أصحاب كتب الحديث الستة المعروفين عدا البخارى ومسلم يذكرون فى كتبهم بعض هذه الأحاديث سواء عن هذا الفريق أو ذاك.

وقد ذكر الحاكم فى صحيحه أحاديث عن المهدي للشيعة، ومع ذلك نراه يذكر حديثا عن سفيانى الأمويين، المقابل للمهدي عند الشيعة.. «من ذلك ما رواه فى صحيحه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: يخرج رجل يقال له السفيانى من دمشق، وعامة من يتبعه من كلب، فيقتل حتى يبقر بطون النساء، ويقتل الصبيان.. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه»..

ثم ساق حديثا ثانيا فى السفيانى بلفظ الحديث الأول ومعناه، فتصحيح الحاكم لأحاديث السفيانى، هو بمثابة تصحيحه وتصحيح الترمذى لأحاديث المهدي على حد سواء، وفى الحقيقة أنها كلها غير صحيحة ولا متواترة^(١).

فلم يكن عسيرا ولا صعبا ولا غريبا على الشيعة الاثنى عشرية أن يدعوا هم الآخرون حين مات الإمام الطفل، وانقطعت ذرية الأئمة عندهم، أن يدعوا أنه اختفى وغاب، وأنه المهدي وسيرجع ليملا الأرض عدلا بعد أن تكون قد ملئت جورا وظلما وينتقم ممن ظلمهم، وسلب الحكم منهم واضطهدهم وقد وضعوا الأحاديث والروايات لرواج فكرتهم.. وحققوا الغرض الذى من أجله ادعوا هذا الادعاء. حيث ظلت الجماهرة الكبرى من الشيعة وراء هذا المذهب ووراء هذه الفكرة!

ويقول الأستاذ أحمد أمين^(٢) عن فكرة المهدي المنتظر هذه بعد أن سرد أخبارها، «وهكذا كانت مؤامرة شنيعة أفسدوا بها عقول الناس».. ثم يقول: «حديث المهدي هذا حديث خرافة، وقد ترتب عليه نتائج خطيرة فى حياة الناس».

ولعل من هذه النتائج أنه تسرب إلى المسلمين من أهل السنة، وجاءت بعض الأحاديث عنها فى بعض الكتب الستة غير البخارى ومسلم! وتعلق بها الكثيرون حتى من العلماء، وألفوا فى إثباتها وصحة القول بها كتباً ورسائل!! واعتبروها من ضمن عقائد أهل السنة!! مع أن نقاد الأحاديث قد ناقشوا هذه الأحاديث، وبينوا ضعفها^(٣).. لكنها مع ذلك شغلت

(١) نقلا عن كتاب «المهدي منتظر بعد الرسول محمد خير البشر» ص ٤ لفضيلة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس الشؤون الدينية والحاكم الشرعية فى دولة قطر. طبعة ثانية ١٩٨٠ وقد نقل هذه الأحاديث عن صحيح الحاكم (٤/ ٥٢٠) من كتاب الفتن والملاحم.

(٢) فى ضحى الإسلام ج ٣ ص ٢٤٣.

(٣) المرجع السابق الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود.

علماءنا تأييدا ورفضاً، وسرت إلى عقول العامة عندنا، وكان لها أثر كبير في ادعاء البعض من أهل السنة للمهدية، و«مهدى أهل السنة» غير مهدي الشيعة، إذ لا يعتقد أهل السنة أن المهدي هو الإمام الطفل الغائب حتى يعود، ولكنه مهدي سيظهر من بين الأحياء.. وهي دعوى من الشيعة أصيب بها أهل السنة، معتمدين على أحاديث نبوية موضوعة.

ومن الذين تحدثوا عن الآثار السلبية للقول بالمهدي المنفكر والكاتب أحمد أمين في كتابه ضحى الإسلام، وفي البداية أشار إلى «الجفر» الذي يؤمن الشيعة بأنه وعاء من جلد موروث فيه علم ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة، حيث أوضح أنه أدى إلى إشاعة الخرافات وتعلق المسلمين بالأوهام والاهتمام بالمستقبل أكثر من الحاضر، بالإضافة إلى ظهور أدعياء المهديّة، وما ترتب على ذلك من ثورات واضطرابات وإراقة دماء وابتعاد عن صحيح الدين.

وآخر هؤلاء المدعين «الباب الفارسي» مؤسس البابية، ثم مؤسس البهائية. وقد وجد المدعوون من يناصرهم من المسلمين.

وامتد أثر الإيمان بالمهدي إلى الصوفية، حيث استغل الصوفيون أو نسبة كبيرة منهم فكرة المهدي وصاغوها صياغة جديدة، حيث أطلقوا عليه «القطب» متصرفاً في الكون، وقالوا بمملكة من الأرواح على رأسها القطب وهو نظير المهدي، وهو الذي يدبر الأمر في كل عصر، وهو عماد السماء، ولولاه لوقعت الأرض، ويلى القطب، النجباء، الذين قال عنهم ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية، وهم اثنا عشر نقيباً، وهو نفس عدد الأبراج الفلكية كل نقيب عالم بخاصية برج، وبما أودع الله في مقامه من أسرار، وجعلوا عندهم علوم الشرائع، وإبليس مكشوف عندهم. وهذا ما جعل للصوفية مملكة روحية باطنية وراء المملكة الظاهرية، مما أفسد على الناس عقائدهم وأعمالهم، وجعلهم يهيمنون في واد بعيد عن أرض الواقع.

وتعليقاً على حكاية المهدي يقول الأستاذ الدكتور عبد المنعم النمر شيخ الأزهر الأسبق في كتابه «الشيعة. المهدي.. الدروز.. تاريخ ووثائق» المنشور في سلسلة كتاب الحرية عام ١٩٨٧ ابتداء من الصفحة ١٧٣ إن حكاية المهدي الذي سيظهر في آخر الزمان، ليملاً الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً حكاية بعيدة عن طبيعة الإسلام.. اخترعتها نفسيات خاصة، اختارت لنفسها أفكاراً خاصة جعلتها تعيش وهي شاعرة بالظلم؛ لا شيء إلا لأن الحكم والسلطان خرج عن دائرة نفوذها.. وهي عاجزة عن أن يكون لها الحكم والتسلط، بحكم الطبيعة وسنة الحياة، فأشقت نفسها بهذا التصور، وهذا التعلق بأمل بعيد، فقربتته

إلى نفسها أو قربه علماءها أو أصحاب المصلحة بفكرة المهدي هذا.. فما هي هذه الأرض التي امتلأت بالظلم؟ أرض المسلمين، أو الأرض كلها؟ وما هي الأرض بالتالي التي سيملوها المهدي عدلا حين يحكم؟ هل يحكم أرض المسلمين، أم الدنيا كلها ليملأها عدلا؟ لماذا لا يعملون هم ليحققوا العدل في أرضهم؟ تصورات داخلية كلها في دائرة الأحلام، أحلام الذين شاءوا لأنفسهم أن يعيشوا شاعرين بالظلم والغبن لضياح الحكم، فيحلمون بالعدل وبالحكم في أيديهم، كما يحلم الجائع برغيف الخبز.

كل هذا إنما هو وليد حالة خاصة، وشعور خاص، شئت طائفة من المسلمين أن يعيشوا فيه، وليست له أية صلة بالإسلام السمح الرحب، الذي له قواعده وتعاليمه التي أرساها الله ورسوله.. كما أنه لا صلة له بطبيعة الحياة والعيش فيها، والعمل بها فالقاعدة، ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾^(١) والمسلمون وحياتهم في هذه الدنيا معلقون بأعمالهم. وبما يجيدون فيها، وأمامهم طريق الحياة طريق رحب، فيه متسع للعاملين، إن أرادوا النهوض ورفع الغبن عنهم، فأمامهم الميدان واسع للعمل، وإن أرادوا غير ذلك ابتعدوا عن الميدان خاملين، وتركوه لغيرهم، وتركوا أنفسهم أيضا للغير، يتحكم فيهم، ويشكل مصيرهم.. لن يرسل الله لهم واحدا من السماء أو الأرض يحيل الدنيا لهم لبنا وعسلا.. ويرفع عنهم الظلم، ويملا الأرض بالعدل وهم خاملون جاهلون فما ذلك من سنته تعالى في الحياة بل سنته أنه سبحانه «لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»..

وواهمون كل الوهم، بل غارقون فيه حتى شعروا بهم، أولئك الذين تصوروا أن طفلا في سن خمس سنوات قد اختفى ليعود آخر الزمان ليحقق لهم الإنصاف الذي شعروا أنهم فقدوه، وعاشوا يحلمون أن الذي اختفى سيعود آخر الزمان ليحقق لهم هذا الإنصاف، ويملا الأرض عدلا!! وأى ظلم هذا الذي يتصورونه واقعا بهم، وهم يأخذون حقوقهم كبقية الناس الذين يعيشون معهم، وفي أى أرض أو دولة؟ وأى ظلم وقع عليهم وواقع بهم؟

إنه ظلم تخيلوه وعلقوا أنفسهم بحباله، حين تصوروا أن الرسول ﷺ قد جعل المسلمين على مر الزمان وعلى أية أرض، ميراثا لذريته، تحكمهم وتتسلط على شئونهم في دنياهم وآخرتهم إلى يوم القيامة!! من عجيب الأمر أن رواية من الروايات الشيعية تذكر أن الله لما أمر رسوله في «غدير خم» أن يعلن أن عليا وصيه ويتولى الحكم من بعده ويصبح حكم المسلمين بين ذريته للأبد، تذكر الرواية أن الرسول خشى عاقبة هذا الإعلان من

(١) سورة الإسراء الآية ٧.

ثورة الأصحاب عليه ، وتمهل ، ورجا أن يأتي هذا الإعلان من غيره. فنزل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾^(١) فقام الرسول وتشجع وأعلن أن عليا وصيه ووليّه من بعده. روى الكليني في أصول الكافي هذه الرواية عن الإمام الباقر ص ١٧٨ - ١٧٩ من الثورة الإيرانية ص ١٤٩ - ١٥٠ وهذه الرواية التي رووها تدل من حيث لا يدرون أن تعيين عليّ وذريته حكما على هذه الأمة أمر مخالف لطبيعة الأمور ونفوس الناس لأن الرسول ﷺ خشي مغبة إعلان هذا الحكم.. فتمهل حتى نزلت الآية تأمره وتهده.. ثم من الذي قال هذا؟ وظلم الرسول ﷺ به. حين أسنده إليه؟ من الذي يرضى له إسلامه وحبّه لرسول الله أن يدعى عليه أنه أسند حكم المسلمين بعده لأحد، ولو واحد هو ابن عمه وصهره خاصة؟ ولذريته إلى يوم القيامة.

بينما وجدنا أبا بكر لم يوص بالخلافة لأحد أبنائه، ووجدنا عمر رضى الله عنهم جميعا يرفض رأى من أشار عليه بأن يعهد إلى ابنه بعده أو يرشحه ويقول: «كفى آل الخطاب واحد منهم يسأله الله عن أمة محمد» ويرشح غيره. ولنفرض فرضا ولو بعيدا أن الرسول ﷺ أوصى لعليّ بالحكم بعده. فهل يعنى هذا أن يظل الحكم فى الإسلام، وراثيا فى ذريته ومن السيدة فاطمة دون زوجاته الأخريات؟ وهل كان من مهمات الرسول ورسالته التى كلفه الله بها أن يجعل حكم المسلمين وراثيا فى ذرية بنته فاطمة رضى الله عنها؟ حتى لطفل مثل الإمام الذى قيل إنه اختفى وعمره خمس سنوات؟

لقد سألته فاطمة رضى الله عنها أن يعطيها شيئا من الغنائم، تستريح به من عناء العمل فى البيت، فأبى ﷺ وذهب إليها وعلمها كلمات من تسبيح الله ودعائه تستعين بها على متاعبها.. أبى عليها حتى هذا الشئ، الذى أعطاه أناسا من الصحابة، لتظل ويظل عليه الصلاة والسلام بعيدا عما يشتم منه رائحة محاباة.. فيعطى ذريته حكم المسلمين إلى الأبد؟ وماذا كان يقال عنه لو فعل ذلك، وهو ليس من مهمات الرسالة. بل ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾^(٢).. ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(٣).

أفكان للرسول أن ينقض هذه القاعدة فى أهم أمر من أمور المسلمين، ويكون بعد ذلك مثلاً وقدوة لهم؟ أفيقول الله له «وشاورهم» فى أمور الحياة العادية التى لا ينزل فيها وحى،

(١) سورة المائدة الآية ٦٧.

(٢) سورة الشورى الآية ٣٨.

(٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

فيستشيرهم في الخروج للحرب، وفي موقف الجيش للحرب، وفي عقد الصلح. وفي غير ذلك ثم يأتي لأهم أمر من أمور الحياة فيحرمهم من أن يكون لهم رأى فيه؟ وخطأ كل الخطأ أن يتصور أحد أن أمر حكم المسلمين وتعيين الحاكم هو فرض من فروض الإسلام لابد للرسول أن يقوم به ويعينه مثل الصلاة والصيام والحج.

صحيح أن الحاكم هو رأس الأمة المدير.. وقد جعل الإسلام الأمر فيه شورى بحيث يمكن للأمة إذا انحرف أن تعزله، وتولى بدله. أو تقومه كما قال أحد الصحابة لعمر رضى الله عنهم «والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا» ولم يغضب عمر منه، لأن هذا من حقه ديناً، بل فرح به لأنه ينطق بروح الإسلام، أفكان يتصور مثل هذه الحرية تجاه إمام من أئمة الشيعة وهم معصومون في نظرهم؟ فكيف يستقيم لمحب لرسول الله أن يتصور أن تعيين على كان من الفروض الدينية التي قام بها الرسول، وأن علياً وكل حاكم له الحق في أن يعين من بعده من ذريته، ولو كان طفلاً ليحكم المسلمين ويقوم بشئونهم. مثل هذا الإمام الطفل الغائب الذي كان إماماً بالوراثة. ويكون حاكماً بالوراثة حسب رأيهم.. وهو لم يكن يعنى من أموره وأمور الدنيا شيئاً غير غرائز الطفولة؟

إنهم يظلمون الرسول والرسالة، ويظلمون الإسلام ومبادئه، بدعوى أنهم يحبون آل بيته، ولا عجب، فبدعوى حب على وآل البيت، صوروا الرسول ﷺ رسولاً فاشلاً في تربية صحابته، حين ادعوا أن أبا بكر وعمر والصحابة جميعاً نقضوا حكم الرسول ورسالته، وكذبوا وتآمروا، من أجل أن يتولوا الحكم، ويسلبوه من الإمام على.. اللهم إلا ثلاثة أو حتى عشرة من الصحابة، كانوا مع على وذكروا أسماء الثلاثة أو الأربعة.. أف تكون حصيلة تربية الرسول لأصحابه هؤلاء الأربعة.. وحسب؟! يا لضيعة الرسول والرسالة إن كانت هذه هي الثمرة؟ أما غير الأربعة من الصحابة كلهم فكذابون مختلون، خونة منافقون وكافرون، انهالوا عليهم باللعنات حتى في دعائهم لله في صلواتهم!! وسموا أبا بكر وعمر صنمى قريش، وهما المرادان: بالجبيت والطاغوت!

فهل بهذه الصورة القاتمة التي تصورها يقدمون الإسلام ورسوله للعالم؟ وماذا يغرى العالم بالإسلام إذن وهذا رسوله قد فشل فشلاً ذريعاً في تربية من معه من صحابته. وانقلبوا على كل تعاليمه، وارتكبوا أشنع الموبقات بمجرد وفاته، من أجل أن يحكموا؟ ونقضوا وصيته لعلی؟ كما يدعى هؤلاء^(١).

(١) انظر واقرأ كتاب «صورتان متضادتان» للعالم الهندي الكبير السيد أبى الحسن على الندوى، يعنى صورة عقيدة أهل السنة في الصحابة، وعقيدة الشيعة فيهم.

بل إننا لنجد من هذا القبيل صورة أخرى مفزعة، جاءت على لسان آية الله خوميني نفسه حين ألقى خطبة بمناسبة ذكرى الإمام المهدي في ١٥ شعبان ١٤٠٠ هـ قال فيها نقلا عن الإذاعة والصحف الإيرانية: «لقد جاء الأنبياء جميعا من أجل إرساء قواعد العدالة في العالم، ولكنهم لم ينجحوا، حتى النبي محمد خاتم الأنبياء، إلى أن قال: والشخص الذي سينجح في ذلك ويرسي قواعد العدالة في جميع أنحاء العالم في جميع مراتب إنسانية الإنسان، وتقويم الانحرافات، هو «المهدي المنتظر»^(١) وقد كرر «خميني» هذا المعنى في خطبة له أخرى في ٩ أغسطس ١٩٨٤ بمناسبة احتفاله بمولد الإمام الرضا، ونشرت نص الخطاب نقلا عن الإذاعة والصحف الإيرانية مجلة «امباكت انترناشيونال الصادرة في لندن في ٢٤ / ٨ / ٨٤» وهي من مجلات الجماعة الإسلامية المؤدودة بباكستان نقلتها عنها مجلتهم في لاهور «إيشيا الأسبوعية الصادرة في ٢٣ سبتمبر ١٩٨٤» ثم علقت عليه تعليقا لازعا تحت عنوان «هذا نفى للإسلام وتاريخه وأمر لا يحتمله حتى الأصدقاء» وذلك لأنه قال في خطابه هذا، إن الرسول وصحابته منذ فجر الإسلام حتى اليوم لم ينجحوا في إقامة الحكم الإسلامي، وأن عليا لم تتح له الفرصة لكشف علم الحقيقة الذي أخبره به الرسول في أذنه، وبالتالي لم تتح للأئمة من بعده، لأن عليا ذهب ومعه علم الحقيقة.. الخ..

وتتساءل هنا: كيف يدعى الأئمة إذن أنهم يعلمون علم الحقيقة من علي عليه السلام كما يرددون ذلك؟ ثم أين علم القرآن إذن إذا كان علم الحقيقة قد ذهب مع علي؟ ثم يقول «خميني»: الذي لم نجده حتى الآن هو الإنصاف الإلهي. والآن وقد وهبنا الله النجاح بفضل نرى كيف تحاك المؤامرات حول الحكومة الإيرانية الإلهية «يعني حكومته».

يريد أن يقول هنا كما صرح في مواقف أخرى: إنه نجح فيما لم ينجح فيه الرسول ولا صحابته، ولا الأئمة، في إقامة حكومة إلهية باسم الفكر والمذهب الشيعي - وهو ينفخ في الشعب هذه الصورة الحماسية، وسبق أن نقلنا عنه أنه يقول: إن هذه الحكومة الإلهية - حكومته - هي أول حكومة في التاريخ للمذهب الشيعي الاثني عشري وأتباعه، وأنها عازمة على إنصاف أتباع المذهب من الظلم الذي وقع عليهم على مر التاريخ من حكومات غير شيعية وغير إلهية.. وذلك ليثير في الشعب التحمس المذهبي له والتعلق به.. غير حاسب حساب المذاهب الأخرى شيعة وسنة.. حين ترى فيه هذا الإغراق التعصب المذهبي

(١) ص ٢٦، ٤٥ من كتاب «نهج خميني في ميزان الفكر الإسلامي» لأستاذة من جامعة بغداد، طبع دار عمار بعمان الأردن طبعة أولى ١٩٨٥.

الذى لم يبال.. وهو رجل دولة أن ينقله من بطون كتبهم، ويحييه الآن ويجابه به المسلمين الآخرين وغير المسلمين.

النولى الفقيه

برزت نظرية ولاية الفقيه وثار الجدل حولها بشكل حقيقى مع بروز الثورة الإسلامية الإيرانية ١٩٧٩. ونجاح الملالي وآيات الله بقيادة الخمينى فى الإطاحة بالشاة، كان الخمينى الذى كان منفيًا فى فرنسا، لفترة بسيطة، وقبل ذلك مقيمًا فى النجف زهاء أكثر من عقد منذ ١٩٦٥. للحصول الدينى الحوزوى المعتاد، يبشر بهذه النظرية الثورية التى تعنى إشراف رجل الدين «الفقيه» بشكل مباشر على ضمان الشرعية الإسلامية فى المجتمع والدولة، لأن الخطاب الشيعى التقليدى يقوم على عدم منح الشرعية الكاملة إلا للمعصوم وهو المؤهل الوحيد لتحقيق الشرعية التى يعيش المجتمع فى كنفها دون حرج، أما دول القهر والواقع فكان الفقه الشيعى طيلة قرون وقرون يتعامل معها بالحد الأدنى من الضروريات دون منحها الاعتراف الشرعى الذى لا يكون إلا للمعصوم الغائب، وظلت الدول المتعاقبة فى إيران منذ غلبة المكون الشيعى عليها فى القرن السادس عشر، فى حالة قلق وخوف دائم من ثوران الجماهير، وكانت الوسيلة الدائمة للسيطرة هى القوة العارية، أو الاعتماد على الفقيه لمواجهة الجماهير؛ وقال الخمينى فى كتابه الشهير «الحكومة الإسلامية» الذى صدر ١٩٧٠ إن ولاية الفقيه تمثل جوهر الخطاب السياسى الشيعى.

وقد عالج الخمينى فكرة الحكومة الشرعية بصورة مفصلة ومتخصصة. ومع أنه جاء ضمن حلقات بحث فقهى، إلا أن القضايا التى طرحها تجاوزت هذا الإطار ولاست أسئلة عديدة كلامية، ثقافية وسياسية.. والحقيقة أن جذور نظرية ولاية الفقيه تعود إلى تاريخ أقدم أى منذ حكم الصفويون إيران، وقد قدم رجل الدين البارز آية الله الكركى القادم من جبل عامل فى لبنان دعمه للشاه الصفوى (طهماسب) ومنحه إجازة للحكم باسمه باعتباره الفقيه، ممثل ونائب الإمام المهدي الغائب.

وقبل ثورة الخمينى بمائة وخمسين عاما كان هناك مجال خصب فى الإطار الفقهى الشيعى أثاره الإمام النراقى فى كتابه (عوائد الأيام) حول حدود الولاية بالنسبة للفقيه. وقد ظهرت إرهابات النظرية فى جبل عامل بلبنان على يد محمد بن مكى الجزينى العاملى (١٤٧٢م)، الذى وسع نطاق عمل الفقهاء فى حياة المؤمنين. واستند إلى ما أسماه

«نيابة الفقهاء العامة» عن الإمام المهدي المنتظر. وتشمل القضاء والحدود وإقامة صلاة الجمعة. وصاغ الجزيني تعبير «نائب الإمام» الذي أطلق على الخميني لدى عودته من المنفى. وبعد أربعة قرون طور الشيخ النراقي الجزيني بتوسيع صلاحيات الفقهاء. واستخدم مصطلح «ولاية الفقيه» لأول مرة. رأى النراقي أن للفقيه في عصر الغيبة الولاية في أمور الدين والدنيا التي كانت للنبي والأئمة إلا ما استثناه الدليل الشرعي.

ومنذ خروج النظرية وجدت معارضات فقهية، وما زالت، وللب خلاف يقوم على حدود الولاية التي تمنح الفقيه صلاحيات المعصوم الخاصة به مثل الحكم بالناس في دمائهم وأموالهم. وكل أمورهم العامة التي عظم الله شأنها لذلك فهي من اختصاصات المعصوم الغائب. ولكل فريق أدلة يستدل بها. سواء أنصار الولاية العامة للفقيه، أو الولاية الخاصة، أو الجزئية. وأبرز نص يتم استحضاره هو رواية عمر بن حنظلة: «قال الإمام الصادق بعد سؤال عن رجلين تنازعا، ينظر إلى من كان منكم ممن قد روى حديثنا ونظر في حلالنا وحرامنا وعرف أحكامنا فليرضوا به حكما فإني جعلته عليكم حكما».

لكن مفتي جبل عامل السيد علي الأمين المعارض لنظرية ولاية الفقيه يقول إن هذا النص لا يدل أبداً على مفهوم ولاية الفقيه كما نظر له الخميني وأنصاره، بل هو مقتصر على الولاية الخاصة.

في الإطار العام لدى الشيعة، لا تقوم «الشرعية الكاملة» إلا بظهور الإمام المهدي المنتظر، ولذلك لاحظ الخميني أن ذلك سلبيته تعني عمليا استحالة إقامة الشرعية والحكومة الإسلامية وتقضى بتحول العدالة، حسب المنظور الشيعي الذي لا يقول بولاية الفقيه. إلى مجرد أمنية كما لاحظ أحد علماء الشيعة الكبار.

المفارقة أن الخميني الذي استفاد من جهود الفقهاء الكبار السابقين وطور النظرية وذهب بها في تطبيقات مباشرة، لم يجد تأييدا في أوساط رجال الدين المتقدمين. وكانت قاعدته الشعبية تقوم على البرجوازية الصغيرة وبعض صغار طلبة العلم من الشبان. وبلغ الخميني بالنظرية ذروتها مع الوصول الفعلي إلى الحكم بتحالف عريض مع أحزاب يسارية، وعلمانية، وإسلامية يسارية، لكنه أزاحهم جميعا عن المشهد وكرس حكم الولي الفقيه لنفسه. وعارضه في ذلك فقهاء شيعة كبار في نظريته تلك داخل إيران وخارجها، فمن داخل إيران كان آية الله شريعة مداري، الذي عوقب بالإقامة الجبرية إلى وفاته، ومن

خارجها كان المرجع الكبير أبو القاسم الخوئي في النجف معارضا لنظرية ولاية الفقيه العامة، ومثله تلميذه المرجع الحالى السيستاني.

والاتجاه المحافظ لدى المراجع الشيعية هو تأييد الولاية الخاصة للفقيه فى خصوص الأحكام الفقهية الخاصة، أو الولاية على الأيتام والقصر والأرامل، باعتبار «الحاكم ولى من لا ولى له» وفق النص الإسلامى الفقهى الشهير، والحاكم هنا بمعنى القاضى لا بمعنى السلطان السياسى. وكان الفقيه اللبنانى الشيعى الشهير محمد جواد مغنية من معارضى نظرية ولاية الفقيه، بل حتى المرجع محمد حسين فضل الله يعتبر معارضا للنظرية. ويخالف حزب الله فى إيمانه بالنظرية، كما قال هو صراحة فى حوار صحفى له.

الأمر الذى يجب الانتباه له أن معارضة نظرية ولاية الفقيه العامة لا تعنى عدم المطالبة بوجود حكم «إسلامى» شرعى معين، كما هو مطلب كل التيارات الأصولية شيعية كانت أم سنية، ولكنه يعنى فى الحالة الشيعية، الخلاف حول اختصاص الفقيه «السلطان» بتطبيق هذه المهمة دون غيره ووجوب الرجوع إليه، فالولاية للأمة على نفسها وليس للفقيه على الأمة، كما هى زبدة اعتراض العلماء والمتقنين الشيعة على نظرية ولاية الفقيه.

الأمر الآخر، أنه منذ طبق الخمينى نظريته ونجح فى إقصاء معارضيه من رجال الدين وغيرهم، حتى خليفته المرتقب آية الله منتظرى، الذى اختلف مع حاشية الخمينى وتم إبعاده، عارض نظرية ولاية الفقيه.

فيما يخص حزب الله، فهو جزء من الأحزاب الشيعية التى تؤمن بنظرية ولاية الفقيه ويعنى هذا الإيمان تلقى التكليف الشرعى والسياسى من الإمام الفقيه، وهو واجب شرعى سياسى حسب مقتضيات النظرية، لا يجوز الاعتراض عليه، ومثل حزب الله المجلس الإسلامى الشيعى فى العراق، أى جماعة الحكيم، ولكن هذا لا يعنى أن كل الأحزاب الدينية الشيعية مرتبطة بالنظرية، وإن ارتبطت بالنظرية فهذا لا يعنى بشكل آلى الارتباط بمرجعية طهران ومرشد الثورة، والشهد الحالى إزاء نظرية ولاية الفقيه كالتالى:

– أحزاب تؤمن بدور إشرافى للفقيه، على أساس نظرية ولاية الفقيه العامة أو فى إطار الالتزام التقليدى بالمرجعية الدينية، لكنها لا ترجع إلى آية الله خامنئى، ومن بينها منظمة العمل الإسلامى، وحزب الفضيلة، والتيار الصدرى، وجمعية العمل الإسلامى فى البحرين.

– أحزاب تلتزم بالإطار الدينى لكن من دون دور خاص للفقهاء. ويدخل فى هذا الصنف حزب الدعوة، وجمعية الوفاق الوطنى فى البحرين.

ومن التحولات التى طرأت على محيط العمل السياسى لهذه الأحزاب فى دولها الوطنية العمل على تهذيب وتطوير وتشذيب النظرية أو تطبيقاتها. ومن أمثلة ذلك حالة المجلس الإسلامى فى العراق الذى أزاح من اسمه كلمة «الثورة الإسلامية» ومثله حزب الله الذى أزاح من وصفه كلمة الثورة الإسلامية بعد اتفاق الطائف (١٩٨٩)، ولكن هذا لا يعنى سقوط الغاية الأساسية فى إقامة الشرعية الإمامية التى يشرف عليها الولى الفقيه، بل يعنى أخذ معطيات الواقع فى الاعتبار، فالتحول هو التكتيك وليس الاستراتيجية، تماماً كما أن الإخوان المسلمين، فى الإطار السنى، لم يتخلوا عن الهدف الأكبر فى إقامة الشرعية الإسلامية من خلال دولة الخلافة، ولكن يختلفون عن غيرهم من الأحزاب الأصولية السنية فى التدرج والتكتيك.

نظرية ولاية الفقيه نقلت الإمكان الشرعى الشيعى من حالة «الأمية» بالعدالة، وكونهم صوت اعتراض دائم إلى موقع الحكم بدولة وسلاح وصواريخ وأنماط اجتماعية وصيغ حياة، إنها تشبه تفجير الذرة فى تاريخ الأفكار.

مراجع التقليد

يعتقد الشيعة الإمامية الاثنى عشرية بأن رجوع الشيعة فى أحكام دينهم وأمور حياتهم العامة لا بد أن يكون للنبي محمد ﷺ، ومن بعده للإمام المعصوم المعين من قبل النبي، وهم الأئمة الاثنى عشر، ابتداء من الإمام على (عليه السلام) وانتهاء بالإمام المهدي، وهو ما يطلق عليه بعصر الظهور. وبعد غياب الإمام المهدي (حسبما تعتقد به الشيعة الاثنى عشرية) كان اتصال الشيعة بالإمام عبر وكلائه أو سفرائه الأربعة وهم: عثمان بن سعيد العمرى ومحمد بن عثمان بن سعيد العمرى الذى توفى ٣٠٥ هـ وأبو القاسم الحسين بن روح النوبختى وتوفى ٣٢٦ هـ وأبو الحسن على بن محمد السمرى الذى توفى ٣٢٩ هـ. وسميت هذه الفترة الزمنية التى تولى فيها السفراء الأربعة السفارة والنيابة عن الإمام المهدي بالغيبة الصغرى، وكانت مدتها ٦٩ سنة.

مع الغيبة الكبرى للإمام المهدي فى مدينة سامراء عام ٣٢٩ هجرية، فإن مراجع التقليد هم الوكلاء الذين اختارهم الإمام ليكونوا صلة الوصل بينه وبين الطائفة الشيعية،

ووفق حديث الإمام المهدي الذي يحدد فيه الشروط التي يجب أن تتوفر في المرجع الديني وهو «من كان من الفقهاء صائنا لنفسه، حافظا لدينه، مخالفا لهواه، مطيعا لأمر مولاه، فعلى العوام أن يقلدوه». «والمرجع» هو الفقيه المجتهد المسؤول عن بيان الحكم الشرعي الذي يحتاج المؤمنون معرفته في عباداتهم ومعاملاتهم. وقد أكد الفقه الإمامي هذه الحقيقة، حيث يبدأ أي كتاب فقهي بتلك العبارات: يجب على كل مكلف غير بالغ مرتبة الاجتهاد في غير الضروريات من عباداته ومعاملاته. ولو في المستحبات والمباحات أن يكون مقلدا أو محتاطا، والتقليد هو العمل مستندا إلى فتوى فقيه معين «مشيرا إلى أن المرجع الذي يتم تقليده، يجب أن يكون عالما مجتهدا عادلا ورعا في دين الله، غير مكب على الدنيا ولا حريصا عليها وعلى تحصيلها جاها ومالا».

والمرجعية الدينية عند الشيعة الإمامية، كيان فقهي كبير يحتل في الحياة السياسية والدينية مساحة واسعة جدا يرتبط بها الشيعة بأوثق العلاقات وأمتنها، وتكتسب تعليمات المرجعية بالنسبة للفرد الشيعي صفة الأمر والحكم الشرعي الملزم دينيا، الذي لا يجوز التخلف عنه ومخالفته.

كما أن المرجعية لا تورث لابن أو لأخ أو لابن عم، وللشيعة طريقتهم الخاصة في انتخاب المرجع الديني الذي يتصدى لشئون التقليد، وهذا لا يتم عن طريق ترشيح المرجع لنفسه والفوز عبر صناديق الاقتراع. لانتخاب المرجع لدى الشيعة أسلوب مفتوح للجميع، والعملية تتم عندما يرشح العلماء رجل دين مجتهدا ومرجعا ليتصدى للمرجعية استنادا إلى عدد مقلديه. كما أن المكانة التي تحتلها المرجعية، جعلها حقيقة كبيرة فرضت نفسها على الواقع السياسي بكل قوة، وراحت الحكومات تتعامل معها بحسابات دقيقة، وقد تحاشت السلطات قبل الثورة أن تصطدم معها قدر الإمكان، خوفا من تعرضها لثورة جماهيرية، رغم أن السلطات كانت تعمل على إضعافها وتقليل مكانتها السياسية. فالحكومات تنظر إلى المرجعية على أنها سلطة ذات نفوذ على الشيعة، بل إن سلطة الحكومة قد تتعطل إذا ما تعارضت مع موقف المرجعية. والشواهد التاريخية على ذلك كثيرة.

أما تمويل المرجعية فيتم عن طريق الزكاة والخمس، أي أن يدفع كل شيعي خمس أرباحه للمرجعية، وللمرجع الحق في التصرف بهذه الأموال حسب احتياجات الطائفة، مثل بناء المساجد والمعاهد الدينية والمكتبات وتعميرها، وكذلك بناء المستشفيات والمراكز

الصحية. وصرف الرواتب الشهرية لأساتذة الحوزة العلمية وطلبتها والانفاق على الفقراء وسد احتياجاتهم. ولا نستطيع معرفة الرقم الأكيد لدخل المرجعية. وهذا موضوع صعب للغاية. وأبناء الطائفة الشيعية لا ينظرون إلى قومية المرجع الدينى الأعلى، سواء كان عراقيا أم هنديا أم إيرانيا، بل يهتمون بعلمه وفقهه.

المرجعية الشيعية

ينصرف لفظ الشيعة الآن إلى أكبر فرقهم المتبقية. بعدما تلاشت تماما فرق أخرى فى فترات تاريخية مختلفة، وهذه الفرقة أو الطائفة هى الشيعة الإمامية الاثنا عشرية، أو الجعفرية نسبة إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق، والذين تبلور مذهبهم فقهيا فى أوائل العصر العباسى ومن خلال نشاطه العلمى الواسع فى الكوفة حيث كان أبو حنيفة النعمان إمام الحنفية من تلاميذه.

وكان أهل بلاد الشام حتى منتصف القرن العشرين يسمونهم المتأولة - أى الموالين أو المتولين لأنمة أهل البيت - ومن خصائصهم أنهم يقولون بوجود اثنى عشر إماما معصوما ومنصوصا على كل واحد منهم بالإمامة من سابقه. وهؤلاء الأئمة يبدأون بعلى بن أبى طالب وينتهون بمحمد بن الحسن العسكرى، المهدي المنتظر، الذى ولد فى أواسط القرن الثالث الهجرى وغاب ومازال حيا وسيخرج ليملأ الدنيا عدلا وقسطا، بحسب الاعتقاد. ومرجعهم أو مراجعهم المجتهدون هم نواب هذا الإمام المنتظر ومختلفون على سعة مساحة هذه النيابة وضيقها التى يصل بها بعضهم إلى الشمولية أى ولاية الفقيه/ العامة أو المطلقة ويحصرها أكثرهم فى الأمور الحسبية - الولاية على القاصر، طلاق المرأة الغائب عنها زوجها، وراثه من لا وارث له الخ. والشيعة الإمامية الاثنا عشرية البالغ عددهم فى العالم مئتى مليون منتشرون فى أصقاع عدة، من تايلاند وبورما وشبه القارة الهندية إلى شرق إفريقيا مرورا بالبلاد العربية وأكثر الدول الإسلامية. وتربط بينهم منظومة عقائدية محددة، ومختلف بين علمائهم على بعض تفاصيلها، إلى مجموعة من الذكريات المكونة وأهمها استشهاد الإمام الحسين فى كربلاء عام ٦٠ للهجرة. كما يلتزمون بفقهاء علمائهم المؤسس على الكتاب والسنة فى رواية الأئمة. وهذا الفقه يلزمهم بالولاء والمعاملة الصحيحة مع إخوانهم المسلمين من سائر المذاهب ويلزمهم كما يلتزم به المسلمون على أساس التوحيد الإبراهيمي بالتعامل الشرعى الودود مع أهل الأديان السماوية والمسيحية منهما بصورة خاصة ومميزة.

هذا كله على نسبة من الاختلاف العلمى ، كما بين أى مذهب إسلامى وآخر، وإن كانت هذه النسبة من الاختلاف بين الاثنى عشرية والمذاهب الأربعة والزيدية والإسماعيلية تتسع هنا ففى المجال العقدى أو هناك فى المجال الفقهى . من عقيدة الإمامة والعصمة مثلاً إلى عدم الأخذ بالقياس والرأى فقهيًا ، كما هو عند الحنابلة مثلاً، وفى واقع حياتهم وسلوكهم وعباداتهم ومعاملاتهم والأحكام الفقهية العائدة لها ، يجتمعون فى ظل مرجعيتهم الدينية ، التى كانت مدينة النجف فى العراق . ومنذ منتصف القرن الخامس الهجرى ، أى منذ بداية الحكم السلجوقى للعراق ، مكان الحوزة العلمية والمرجعية الشيعية الأولى وشبه الحصرية ، بعدما اضطر كبير علمائهم جعفر بن الحسن الطوسى (ت ٤٦٠ هـ) إلى مغادرة بغداد عندما وصلها السلاجقة بقيادة طغرل بك وأسقطوا الدولة البويهية ... هذا مع وجود مراكز وفروع كانت ولا تزال تغيب وتحضر تبعاً للظروف (كربلاء - الحلة - الهند - خراسان - أصفهان وجنوب لبنان/ جبل عامل) إلى «قم» التى أعيد تأسيسها فى عشرينات القرن العشرين على يد الشيخ عبدالكريم الحائرى المجتهد وخريج النجف.

وعلا شأن «قم» كجامعة دينية (حوزة) قبل الثورة (١٩٧٩) ولكن هذا الشأن تعاضم بعد انتصار الثورة فى إيران وفى ظل الدولة الإيرانية الإسلامية الجديدة متزامناً مع نجاح النظام العراقى السابق ، فى تشتيت الحوزة النجفية وتحجيم دورها من دون أن يستطيع إلغائها تماماً . بفضل صمود المرجعية فيها مع عدد محدود من العلماء والطلاب الذين عانوا مرارات الحصار والتجويع والسجن والتعذيب والقتل . ومنذ أواسط تسعينيات القرن الماضى أصبح السيد على السيستانى هو مرجعها الأول بعد وفاة السيد أبو القاسم الخوئى ، مع عدد من المراجع وترجع أكثرية الشيعة إلى السيد السيستانى حتى شيعة إيران . ما يؤكد أن المرجعية لدى الشيعة ما زالت تقوم على شروطها التاريخية (الكلاسيكية المتجددة) وأن السلطة أو السياسة لم تؤثر تأثيراً عميقاً فى هذا المجال . وهذا يجزنا إلى الكلام عن الشروط الدينية العلمية لهذه المرجعية وكيفية التحقق من توافرها فى المرشح للمرجعية أو المتصدى لها .

وفى البداية لا يشترط فى المرجع أن يكون عائداً فى نسبه إلى أى فرع من الهاشميين أو أهل البيت . أى لا يشترط أن يكون من السادة أى الأشراف الذين يعترفون العمة السوداء منذ أوائل العصر العباسى ، وإن كان بعضهم بقى حتى الآن . وفى حدود ضيقة . يعتمر العمة الخضراء أو يضع لفافة خضراء على غطاء رأسه (الطربوش). علماً أن الفقه الشيعى

والإسلامى عموماً، واستناداً إلى عدد من الرويات، يؤكد استحباب العمة البيضاء، التى يعتمرها رجال الدين الشيعة من غير السادة، وهذا لا علاقة له بالمرجعية، أى أنه لا يدخل النسب أو العمة السوداء فى شروط المرجعية. ويمكن أن يكون المرجع من السادة الهاشميين ومن غيرهم بشرط الإسلام والبلوغ والعقل والذكورة وطهارة المولد كشروط طبيعية، يضاف إليها الشرط العلمى وهو أن يكون مجتهداً أى قادراً على استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من مصادرها (الكتاب والسنة وغيرهما) بما يعنى ذلك من ضرورة إتقان العلوم الضرورية لفهم النص والدليل، من نحو وصرف وبلاغة ومنطق وتاريخ ودراية ورواية وعلم رجال وهيئة (فلك) إلخ. وتأميناً لأقل احتمالات الخطأ فى تعيين الحكم الشرعى للواقعة، يتفق علماء الشيعة أو أكثريتهم الساحقة على أن يكون المرجع المجتهد الذى يقلده ويعود إليه غير المجتهدين فى الأحكام، هو أعلم المجتهدين، أما من يعين أن هذا مجتهد أعلم فالمعول فيه على الخبرة الشخصية لكل عالم من العلماء، أى معرفة العالم بالعالم علمياً، أو البيئة بمعناها الشرعى والعلمى، أى أن يشهد اثنان من العلماء الموثوقين فى علمهم ودينهم، بأن فلانا هو المجتهد الأعلم، ويجب أو يجوز الرجوع إليه فيرجع إليه من يطمئن إلى شهادتهما فيه، ويكتفى البعض بأن تكون العلمية شائعة بين المعنيين بالمرجعية مع الاطمئنان إلى عدم وجود عصبية أو محاباة حتى يصح التقليد.

هذا السياق هو الذى يسمح أو يقتضى تعدد المراجع، على أساس أن المرجع هو الذى يختاره المكلف ليرجع إليه بمحض إرادته، فلا يمنع ذلك أن يختار مكلف آخر مرجعاً آخر يرى أن الشروط متحققة فيه أكثر من الأول. والشرط الثانى للمرجعية هو العدالة، أى الأهلية الراسخة بالخبرة والتجربة والمعرفة والسلوك الاختيارى على اتباع العدل فى نفسه وأهله ورهطه والناس أجمعين، وفى كل حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله، أى أنه ذو ملكة مكتسبة تمنعه من ارتكاب الكبائر أو الإصرار على الصغائر مع التواضع والزهد والعفة. والمرجع يتواصل مع مقلديه (أتباعه بالمعنى الفقهى) فى الحوزات العلمية مباشرة، أو بقليل من الوسائط، وخارجها يتواصل من خلال وكلاء موكلين خطياً من جانبه، وهم عادة من زملائه أو تلامذته الموثوقين علمياً وخلقياً، وبعد انتشار الطباعة، أصبح المرجع يتواصل من خلال كتاب الأحكام الذى يسمى «الرسالة العلمية» ويتضمن فتاوى المرجع وردوده على الاستفتاءات التى ترد إليه من سائر الأقطار فى وقائع محددة...

وتستفيد المرجعية حاليا من وسائل الاتصال الحديثة، من الهاتف حتى الإنترنت. وأهم الأدوار التي تركز مرجعية المرجع استمراره في التدريس اليومي للطلاب في المراحل العليا (درس الخارج أو الأبحاث المعمقة والممهدة للاجتهاد). إذا فالرجع في المحصلة هو تلميذ عدد من المجتهدين وأستاذ عدد من المجتهدين، ومن دون ذلك يبقى اجتهاده أو مرجعيته موضع شك أو رفض أو إدانة، ولا تنفع معها دعاية إعلامية منظمة أو أى أسلوب استقطاب آخر (مالى مثلاً أو سياسى)... هذا إلى إقامته صلاة الجماعة مع توفر الظروف، وإشرافه عبر فريق عمل متخصص، على المدارس الدينية القريبة والبعيدة مع تصديه لكل المشكلات الشرعية فى مختلف الأبواب والأقطار، ومع هذا كله يرفع المرجع عبر مؤسساته ومعاونيه ووكلائه الشؤون الثقافية والعلمية والاجتماعية ويتحول إلى ملاذ فى الظروف الصعبة للجميع.

وفى السنوات الأخيرة، أى منذ أكثر من عشر سنوات تقريبا، أبدى المرجع السيستانى اهتماما مميزا وواسعا بالمؤسسات الثقافية والدعائية ومراكز الأبحاث والتحقيق والطباعة وإعداد البرامج للتعليم الدينى، ونشر معاونوه ووكلاؤه هذه المؤسسات فى عشرات الأقطار الإسلامية والعربية والغربية، إضافة إلى المؤسسات الخيرية المتعددة الاهتمامات.

والحوزات الدينية لدى الشيعة قامت وتقوم على الاستقلالية المالية التامة عن الدول، وتكاد مصادرها المالية أن تكون محصورة فى المجال الشعبى أو الأهلى، من خلال الالتزام الطوعى بالتبرعات والهبات، وريوع الأوقاف على الحوزات، والزكاة والأخماس التى يوجبها الفقه الشيعى فى فاضل المؤونة من أرباح السنة لدى أى مكلف بالغ، وترسل الأموال إلى المرجع من طريق وكلائه فى الأمصار أو تقدم اليه مباشرة، ويتسلم من يقدمها إيصالات موقعة، وتعطى الأولوية فى الصرف والنفقة لبناء المدارس ورواتب الطلاب المحتاجين فى شكل يتناسب مع احتياجاتهم وجديتهم فى الدراسة وانضباطهم المسلكى، وكذلك يصرف قسم من المال على التبليغ الدينى فى المدن والأحياء والقرى فى أوطان المبلغين وفى المهاجر. وللفقراء والمحتاجين من الناس العاديين حصتهم التى تصلهم من طريق الوكلاء، إضافة إلى المشاريع العلمية والعمرانية التى تعود على الفقراء بالنفع. وبناء المؤسسات الصحية، وغير ذلك. وتتسع قدرات المرجع المالية تبعا لاتساع مساحة مقلديه، ومن هنا يأتى تعبير المرجع الأعلى، أى الأكثر انتشارا، وإلا ففى الواقع يعتبر كل مرجع هو المرجع الأعلى لدى من يقلدونه^(١).

(١) هانى فحص جريدة الحياة ١٤ يناير ٢٠٠٥.

والمجتهد لابد أن يعلن عن اقتناعه بصلاحيته لأن يكون مرجعا ويصرح لمن يسأله بأنه هو الذى يصلح للتقليد، والمرجعية لا تورث ولا تمنح من أحد لأحد، ولا يفيد فيها إعلام ولا دعاية ولا عصبية سياسية أو اجتماعية أو قومية أو عائلية، جل ما فى الأمر أن المرجع لا بد من أن يكون متقنا للغة العربية اتقاناً علمياً عميقاً وشاملاً يمكنه من فهم النص فهماً صحيحاً، من دون أن يكون بالضرورة متمكناً من التحدث بها بطلاقة. أو من دون لكنة إذا لم يكن عربياً، لأن ذلك يتأتى عادة من الاختلاط اليومي بالناس، وهذا لا يتوافر للذين ينكبون على الدراسة فى أوائل سنوات عمرهم وحتى عمر متقدم، ومن هنا، ولصعوبة الوصول، قلّ فى تاريخ الشيعة الحديثة ونتيجة لاتساع حقول المعرفة وتنوعها، أن يصبح المرجع مرجعاً فى سن مبكرة إلا فى حالات نادرة (حالة السيد محمد باقر الصدر مثلاً) هذا وأكثر فقهاء الشيعة يقولون بوجوب أن يكون الذى يقلده المكلف ابتداءً، أى يتخذه مرجعاً من دون أن يكون مسبقاً بتقليد أحد غيره قبل البلوغ أو لإهماله فى سن البلوغ لذلك... يقولون بوجوب أن يكون هذا المرجع حياً ويفصلون فى هذه المسألة بين من يجيز تقليد الميت وهم نادرون، ومن لا يجيز مطلقاً، ومن يجيز فى حدود المسائل التى تعلمها الشخص من المرجع الميت وعمل بها، دون ما لم يتعلمه ويعمل به والذى يجب فيه الرجوع إلى أعلم العلماء من الأحياء، وهذا لا بد فيه كذلك من أن يكون مطابقاً لفتوى الأعلم من هؤلاء الأحياء (أى البقاء المشروط على تقليد الميت جزئياً).

ومن مراجع الشيعة خلال القرن العشرين من خريجي حوزة النجف إضافة إلى الأحياء الآن: السيد على السيستانى (إيرانى) والسيد محمد سعيد الحكيم (عراقى) والشيخ بشير النجفى (باكستانى) والشيخ إسحاق الفياضى (أفغانى) والسيد محمد سعيد الحبوبى (عراقى) والسيد محسن الأمين (لبنانى) والسيد حسين الحامى (عراقى) والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء (عراقى) والشيخ محمد حسن المظفر والشيخ محمد حسين المظفر (عراقيان) والشيخ محمد حسين الأصفهانى (إيرانى) والشيخ محمد حسين النائينى (إيرانى) والميرزا محمد تقى الشيرازى (إيرانى) والشيخ مرتضى ياسين (عراقى) والشيخ محمد طاهر الراضى (عراقى) والشيخ عبد الحسين الحلى (عراقى) والسيد أبو الحسن الأصفهانى (إيرانى) والسيد أبو القاسم الخوئى (إيرانى) والسيد محمود الشاهرودى (إيرانى) والسيد محسن الحكيم (عراقى) والسيد محمد باقر الصدر (عراقى).

نهاية ازدواجية السلطة

كانت السلطتان الدينية والدنيوية لدى عديد من الأمم تعودان إلى مصدر واحد، ففي مصر كان فرعون هو الإله، وفي العراق كان جلجامش سيد البلاد، ولدى بنى إسرائيل كان الأنبياء هم القادة والملوك مثل داوود وسليمان، وفي العالم العربي الإسلامي كان الخلفاء يتولون السلطتين، وقبل الإسلام كانت سدانة الكعبة وسقاية الحجيج وقفا على قريش سادة أم القرى.

أما إيران فالأمر كان يختلف فيها، ففي انبثاق المدنية كانت المعابد وعلى رأسها الكهان هي مركز القيادتين الروحية والزمنية. فالمعابد كانت مراكز لتجميع الغلال وتوزيعها على الناس وكان منها وعلى أيدي الكهان تدار شئون الحكم وبيعالج المرضى وببت في أمور هامة أخرى. ولكن التصادم مع الجيران أخذ يزداد ويتوسع مع مر الأيام، وبالتالي بدأ الاهتمام بآلة الحرب وهذا التطور قاد بدوره إلى ظهور أبطال عظم شأنهم، وباتوا ينافسون الكهان في الزعامة. وسرعان ما أدى هذا الأمر إلى مشاركتهم الكهان في تسيير دفة الحكم والمحافظة على الأمن والنظام، ولم يلبث الفريقان أن توصلا إلى اتفاق مبدئي بينهما وهو أن يتولى الكهان القيام بالشعائر الدينية. ويعنى العسكريون بشئون الحرب والسلم، ومع مرور الأيام غدت صناعة الحكم من اختصاص قبيلة معينة ورعاية التقاليد الدينية منوطة بقبيلة أخرى.

وكان آخر تطور حل بالمجتمع الإيراني قبل الإسلام انقسامه إلى أربع طبقات وهي النبلاء أهل الحكم وقيادة الجيش، وعلماء الدين القائمون على حراسة دين زرداشت، وطبقة الكتبة والموظفين، وتأتى في الأسفل طبقة الصناع والزراع والحرفيين وهي الرابعة وما كان يجوز لأى من الطبقات الدنيا أن ترتفع إلى طبقة أعلى منها. وكان هذا التمييز قاسيا وينطوى على كثير من الحيف والظلم ويدفع أبناء الطبقة الرابعة إلى الانتفاضة والثورة.

ومثال ذلك ما حصل في عهد الملك قباد الساساني حيث قام المدعو «مزدك» بالدعوة إلى ما يشبه الاشتراكية وعمت البلاد فتنة كبرى مما حدا بطبقتي النبلاء وعلماء الدين إلى عزل «الكسرى قباد» الذى أبدى تجاوبا مع الثوار الاشتراكيين ونصبوا ابنه «خسرو أنوشيروان» ملكا على إيران فأقدم أنوشيروان على قطع دابر المزدكيين دون رحمة أو هوادة وتعقبهم فى كل مكان وقضى عليهم قضاء مبرما.

وكان العالم الدينى الزرادشتى يدعى «مؤبد» وكانوا يختارون لهم رئيساً يدعى «مؤبد مؤبدان» أو «قويدان مؤبد»، وكانت هذه الطبقة على الدوام تتمتع بنفوذ عظيم يربو أحياناً على نفوذ الأكاسرة والنبلاء، فظلت هذه ازدواجية فى السلطة قائمة إلى أن قام الإسلام. وأقبل الإيرانيون على الإسلام بإخلاص منقطع النظير وكانوا قد ضاقوا ذرعاً بالتفرقة الاجتماعية التى كانوا يعيشونها، وكثير منهم اعتنق الإسلام قبل أن يدق الغزاة العرب المسلمون أبواب ديارهم.

وفى عهد الخلافة العربية لم تكن الحال فى إيران تختلف كثيراً عن سائر الأقطار الإسلامية، فمعظم الإيرانيين كانوا على مذهب أهل السنة وقد برز بينهم فقهاء عظام بينهم عدد كبير من أصحاب الصحاح ومنهم الطبرى صاحب التفسير المعروف وحجة الإسلام أبو حامد الغزالى وأبو حنيفة النعمان وأحمد بن حنبل وكوكبة من عباقرة الفقه والحديث والتفسير والكلام.

ولكن الأمر اختلف حين آلت الخلافة إلى آل عثمان وترتب على ذلك وصول الصفويين إلى قمة السلطة فى إيران، وإرغام الإيرانيين على التشيع والاقتناع بأن آل البيت هم الأحق بخلافة الرسول المصطفى وولاية أمر المسلمين وأن علماء الشيعة الإمامية ينوبون عن الإمام الحق فى غيابه فى قيادة المؤمنين، وعلى هؤلاء ألا يدفعوا ما عليهم من التزامات مالية إلا لأولئك العلماء فحدث من جراء ذلك ازدواجية فى السلطة فى إيران، ازدواجية جديدة تختلف عما كان سائداً فيها قبل الإسلام، فالحكام كانوا يفرضون الضرائب على الناس ويطلبون منهم الانخراط فى سلك الجندية، والعلماء كانوا يرون الحكام ظلمة يغتصبون ما ليس من حقهم وعلى المؤمنين أن يتملصوا بكل وسيلة ممكنة من خدمة أولئك الحكام ودفع المال لهم، وأن يدفعوا بكل ما أوتوا من قوة مالياً ومعنوياً سلطة العلماء الروحية لا سيما مراجع التقليد منهم الذين يرجع الناس إليهم فى معرفة ما هم فى حاجة إليه من أحكام فروع الدين، فأصبح لهذه السلطة الروحية شأن عظيم فى المجتمع الإيرانى، تتمتع بنفوذ واسع وميزانية ضخمة وجيش عرمرم من الدعاة وطلاب العلوم الدينية، وكانت المنافسة بين السلطتين الدينية والدينيوية تشتد أو تخف وطأتها حسب الظروف واختلاف طبائع القياديين فى الجانبين، ومن أشهر وقائع الصدام بين السلطتين ما وقع فى عهد الملك القاجارى «ناصر الدين شاه».

وتفصيل الحادث أن هذا الملك اقترض مالا من الإنجليز وفى مقابل ذلك منح امتياز حصر التبغ فى إيران لشركة انجليزية بشروط مجحفة. فما كان من المرجع الكبير السيد محمد حسن الشيرازى الذى كان يسكن مدينة «سامراء» فى العراق إلا أن أصدر فتوى بتحريم التدخين. فامتنع الناس فى طول إيران وعرضها عن التدخين فأسقط فى يد الشاه ناصر الدين ولم يجد بداً من إلغاء الامتياز وتحمل ضرراً مالياً كبيراً. ووقع هذا الحادث الذى كان له دوى عالمى هائل فى أواسط النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى وكانت مواجهة علنية بين السلطتين انتهت بصورة حاسمة لصالح نفوذ السلطة الروحية وكان ذلك إيذاناً برجحان كفة السلطة الدينية على السلطة الزمنية. ودب الضعف فى كيان دولة آل قاجار إلى أن دالت بانتفاضة شعبية عارمة ساهم علماء الدين فى قيادتها وأضحى الحكم فى إيران دستورياً مع إبقاء رمزى على الملك القاجارى مظهر الدين شاه، نجل ناصر الدين شاه، وكان ذلك فى أوائل القرن العشرين. وتم عزل آخر ملوك القاجار «أحمد شاه» الذى كان شاباً يافعا بعد الحرب العظمى الأولى بفترة قصيرة على يد الجنرال رضا خان وبدعم من علماء الدين.

ولكن صداماً كبيراً آخر حصل بين السلطتين فى أوائل العقد الرابع من هذا القرن حين قرر رضا خان، الذى كان قد أمسى «رضا شاه بهلوى» أن يمشى على خطى مصطفى كمال أتاتورك. فى تحديث إيران حسب الأسلوب الغربى من توحيد اللبس وارتداء القبعة والذى الأوروبى وسفور السيدات والتجنيد العام وكل ذلك بالإكراه، فثار العلماء فى وجهه وتجمعوا فى أكبر مساجد مدينة «مشهد» حاضرة خراسان وصعد خطيبهم المذير وهاجم بصراحة إجراءات الشاه المناهضة للدين فتصدت لهم قوات الشاه وأحاطت بالمسجد وأمطرت المتجمهرين فيه وابلا من الرصاص وقتلت وجرحت الكثيرين منهم وقضت على الحركة بمنتهى العنف، واشتدت بعد ذلك مضايقات المسؤولين للعلماء والخطباء وطلاب العلوم الدينية وأذاقوهم ضروب الهوان، إلى أن قامت الحرب العظمى الثانية واحتل الحلفاء إيران، وتنحى رضا شاه عن الملك لصالح ابنه محمد رضا شاه.

وأفسح سقوط رضا شاه المجال أمام الزعامة الروحية لتسترد قوتها وتوسع نشاطها وتنشر أوليتها فى أنحاء إيران على مسمع ومرأى من قوات الحلفاء. وكان هؤلاء لا يمانعون فى ذلك لأنهم كانوا يرون فيه تصدياً لقوة الشيوعيين المتنامية التى تسندها موسكو.

وتكونت فى تلك الفترة نواة تكتلات سياسية دينية واستخدمت بعضها مثل «فدائيان إسلام» العنف فى تصفية من كانت تحسبهم أعداء للإسلام، وكانت تجد تشجيعاً من بعض العلماء مثل آية الله السيد أبو القاسم الكاشانى، وقصة مناصرة آية الله الكاشانى للدكتور محمد مصدق زعيم الجبهة الوطنية فى قضية تأميم البترول الإيرانى ومنازلة الإنجليز معروفة. وانفجرت المواجهة الكبرى بين السلطتين الروحية والسياسية أواخر صيف ١٩٦٣ يوم خرجت الجماهير فى طهران وقم ومشهد بإشارة من الإمام الخمينى وعدد من العلماء المؤيدين له. خرجت لتندد بالقوانين المدنية التى سنّها الشاه محمد رضا خلافاً للشريعة الإسلامية، فسحقته القوات الحكومية بفظاظة وراح ضحيتها قتلى وجرحى كثيرون، ونفى الإمام الخمينى إلى تركيا وبعدها بعام وبضعة أشهر سمح له بالسفر إلى العراق والاستقرار فى النجف.

وقد أنهت ثورة عام ١٩٧٩ بقيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية تحت قيادة الإمام الخمينى ازدواجية السلطة فى إيران واتحدت الزعامتان الروحية والسياسية فى شخصية الإمام الخمينى وصار العلماء الحكام يؤمنون الناس لصلاة الجمعة والعيدين كما جرت العادة أيام الخلفاء الراشدين^(١).

أسطورة النوروز

يميل الإيرانيون عادة إلى المحافظة على الموروث مهما كان، بل إنهم نجحوا فى مصالحة الموروث مع العقيدة الدينية التى دخلوا فيها وهى العقيدة الإسلامية، فجعلوا للنوروز دعاء وصلاة، وأدخلوا آيات القرآن الكريم فى لحظة بدء العام الجديد وهو النوروز، حتى ظن الكثير من الإيرانيين أن الأعياد فى الإسلام ثلاثة. عيد الفطر وعيد الأضحى وعيد النوروز.

وبعد انتصار الثورة الإسلامية وجدت هذه الثورة نفسها أمام عبء تاريخى واجتماعى وثقافى معقد ومتشابك، وبما أن مشروع الثورة قام على تصورات ورؤى متباينة، فإن بروز ذلك على مختلف المستويات أمر طبيعى ومنتظر، لهذا اختلف أبناء الثورة حول كيفية التعامل مع المعطيات الثقافية والاجتماعية والدينية العامة والموروثة منذ مئات السنين. فى هذا الإطار بالذات يمكن فهم عيد النوروز الإيرانى وما يستنبطه من اعتقادات وعادات ورغبات جعلت الحكومة الإيرانية تعتبر الأيام الأربعة «من ١٢ إلى ٢٤ مارس» عطلة رسمية خاصة

(١) جعفر راند جريدة الحياة ٩ يناير ١٩٩٤.

لعيد النوروز، كما جعلت يوم ٢ أبريل الذى يوافق ٣١ من فروردین الإيراني عطلة رسمية لمناسبة يوم الطبيعة، الذى يصفه المواطن الإيراني كل على طريقته بالنوروز، لا تفرقهم فى ذلك الديانة أو القومية أو المذهب، إذ يحتفل الأكراد والترك والفرس والعرب والبلوش، كما يحتفل الشيعة والسنة فى الوقت الذى لا يتخلف عنه المسيحيون واليهود والزرادشتيون.

وحاول الإيرانيون وضع مراسم خاصة لهذا العيد تتعلق بالملبس والمأكل، إضافة إلى العادات والتقاليد التى ترافق النوروز منذ الأسبوع الأخير من فصل الشتاء وحتى الثانى من أبريل مروراً بدخول الطبيعة فصل الربيع الذى يبدأ فى العشرين أو الحادى والعشرين من مارس، ومما يلفت الاهتمام أن يتزامن النوروز مع بداية الأبراج الفلكية حيث يبدأ برج الحمل فى الحادى والعشرين من مارس من كل عام.

وحاولت المعارضة الإيرانية توظيف العادات والتقاليد الموروثة سياسياً ضد حكومة الرئيس أحمدى نجاد، إلا أن مراجع الدين بمن فيهم مرشد الجمهورية آية الله على خامنئى وقفوا ضد هذه العادات واعتبروها بعيدة من الدين مثل إشعال النار والقفز عليها فى آخر ليلة ثلاثاء من العام الفارسى والتى صادفت ١٦ مارس، حين سعت المعارضة لاستغلال هذه التقاليد التى اعتاد عليها الإيرانيون منذ مئات السنين، لكن الفتاوى الدينية أحبطت إلى حد بعيد هذا التحرك السياسى، إضافة إلى رغبة المؤسسة الدينية فى تنظيف هذه المناسبة التى ترتبط بعادات لا علاقة لها بالثقافة الإسلامية التى يقوم عليها النظام السياسى والتى تدخل فى إطار المصالحة التى سعى إليها الإيرانيون بين الموروث والعقيدة الإسلامية.

وقد وضع الإمام الخمينى حدا لبعض الدعوات التى برزت مع انتصار الثورة الإسلامية، والتى طالبت بإلغاء مراسم يوم النوروز باعتباره لا يمت إلى الثقافة الإسلامية بصلة. عندما احتفل بهذا اليوم، وأرسل بياناً للإيرانيين، وصار ذلك تقليداً سار عليه خلفه خامنئى، فى الوقت الذى لم تلغ العطلة التى تمنحها الحكومة للإيرانيين وتعتبر من أكبر العطلات الرسمية فى إيران.

ولم تنجح دعوات بعض علماء الدين لتقليص عطلة النوروز والتقليل من أهميته لحساب المناسبات الدينية الأخرى. لكن النظام السياسى رفض مواجهة عواطف الإيرانيين، وترك الباب مفتوحاً أمام الاحتفال بهذه المناسبة.

وإذا كان النظام السياسى الإسلامى قد اعترف بهذا اليوم القومى كحق من حقوق الشعب الفارسى، فإن بقية القوميات قبلت الاحتفال به لكن كل وفق طبيعته الخاصة. وشكل هذا يوما للتآخى بين القوميات والمذاهب والأديان والطوائف الإيرانية.

وربما تشذ العقيدة البهائية عن هذه القاعدة، لأن النظام السياسى فى إيران، لا ينظر إلى البهائيين كديانة معترف بها على غرار المسيحية واليهودية والزرادشتية، وإنما يتهمها بأنها حزب سياسى يرتبط بالصهيونية العالمية ويدار من المحافل الماسونية. لذلك فإن الدعاية لهذه الديانة محظورة فى إيران، كما يمنع أى تحرك اجتماعى لها.

أما الأعياد والمناسبات الدينية لبقية الأقليات الدينية والطائفية والمذهبية المثلة فى مجلس الشورى كالمسيحية واليهودية والزرادشتية والتي تتمتع بحقوقها. فلا تتعرض لها الدولة كما أن القانون يكفل للأقليات هذا الحق.

وليس هناك اتفاق على أساس تاريخى للنوروز «يعنى اليوم الجديد باللغة الفارسية» يمكن الاستناد إليه لأن كل القصص التى أوردت «عيد النوروز» أو «يوم النوروز» كانت أساطير منقولة من موروث ثقافى مختلف المؤرخون فى تحديد بدايته.

ويرجع بعض المؤرخين الاحتفال بالنوروز إلى قدماء السومريين الذين قد يكونوا من أوائل المحتفلين به، وتورد إحدى أساطير السومريين أن إنانا Inanna السومرية somerian إنهة الحب المقابلة لعشتار البابلية إلهة الشهوة والحب لديهم أغترت بنفسها وبقوتها فذهبت إلى العالم السفلى عالم الموت الذى تحكمه أختها «أوتونيحال» لتغلب على الموت. وعند وصولها فقدت هناك أسلحتها ولم تستطع العودة بعدما تغلبت عليها أختها، هكذا انعدمت الشهوة لدى الإنسان والحيوان ووقف التناسل، بحسب الأسطورة البابلية، والشباب والجمال فى العالم بحسب النسخة السومرية وفى مدينة «الوركاء» تحديدا ابتهل الناس إلى الإله السومرى الأكبر «إنكى ENKI» لإعادتها إلى الحياة بحسب الأسطورة.

كانت عشتار مخطوبة لتموز DUMEZ إله الخضرة، وقد تقبل إنكى تضرع الناس وقرر أن تغادر عشتار العالم السفلى على أن يجد أحدا يذهب إلى العالم السفلى بدلا منها، فصعدت إلى الأرض مع حرس من العالم السفلى لتختار بديلها حيث وجدت تموز متنقلا بين الفتيات الجميلات لا يفتقدها، لهذا اختارته، وبموت تموز ماتت الخضرة على وجه الأرض فاستاء الناس وابتهلوا لـ «إنكى» مع أم تموز وأخته التى تبرعت للنزول بدلا منه إلى

العالم السفلى لكى يصعد هو إلى الأرض ليعيد الخضرة والفرح، تقبل انكى دعواتهم لهذا قرر أن يصعد تمولز إلى الأرض مدة ستة أشهر على أن يعود إلى العالم السفلى فى الأشهر الستة التالية، وبهذا احتفل العراقيون القدماء بتمولز العائد إلى الأرض من العالم السفلى بـ «عيد الدخول»، ومن علاماته انتشار الخضرة والأزهار على سطح الأرض وهو نفسه بدء السنة بحسب تقويمهم.

ومثلاً تتحدث هذه الأسطورة عن ثقافة البابليين والسومريين، هناك أساطير عند الفرس تحدثت من الساسانيين، إذ تروى الأساطير أن الآلهة التى كانت مختبئة فى فصل الشتاء تحت الأرض تخرج فى أول الربيع إلى النور لتمنح الأرض البهاء والجمال ويقسم الإيرانيون العام إلى فصلين اثنين، فصل البرودة وفصل الحرارة، وجعلوا «مهركان» الذى عرب بـ «المهرجان» عيداً فى بداية الخريف و «النوروز» عيداً لانطلاقة فصل الربيع، وفى هذا الصدد نقل الفردوسى شاعر الحماسة القومية الإيرانية روايات أسطورية منظومة، وذكر أبو الريحان البيرونى فى كتابه «التفهيم لأوائل صناعة التنجيم» أن الإيرانيين قبل الإسلام احتفلوا فى الأيام الخمسة الأولى من عيد النوروز فى شكل عمومى ومشترك بين الملوك والرعية، إذ تقضى فى ذلك حاجات الناس وتقدم لهم العطايا والهدايا، أما اليوم السادس فقد سموه بنوروز الخاصة إذ يختلى فيه الملك بندمائه للهو والطرب والشراب، وتمتد فترة الاحتفالات بالنوروز شهراً كاملاً. وفى عصر الساسانيين أى آخر إمبراطورية فارسية، كانت تتخلل احتفالات النوروز طقوس ملكية وشعبية مختلفة، منها أن الإمبراطور كان يلبس فى صباح ذلك اليوم لباساً فاخراً ويجلس وحيداً فى بلاطه ثم يدخلون عليه شخصاً يتفألون به خيراً، ثم يحضر رجال الدين الزرادشتيون لقراءة الأدعية والصلوات وبعد ذلك يقدمون للإمبراطور كأس شراب ويضعون بالقرب منه قدراً من المال تبركاً وتفاؤلاً، فتنتطلق الاحتفالات وتعزف الموسيقى، أما عامة الناس فيتراشقون بالماء، ويتهادون السكر، وفى المساء يشعلون النيران معبرين عن فرحتهم. ويبدو أن عيد النوروز لا يرتبط بالديانة الزرادشتية أو بالديانة المجوسية التى كانت تقضى بعبادة النار، إلا أن النار كانت من الموروث الذى يرمز إلى الفرّح والانتصار كما تعبر عن ذلك الأساطير المختلفة.

وللأكرد باعتبارهم من الآريين الذين يحتفلون بهذا اليوم، نسختهم الخاصة بهم ربما وضعت لتتنسجم مع طموحاتهم السياسية والنضالية إذ وظفوا النوروز لـ «حالة سياسية»

تنسجم مع هذه الطموحات. والنسخة الكردية للنوروز هي أسطورة «كاوة الحداد» الذى تشبه قصته ما ورد فى أسطورة الشاهنامة الفارسية التى كتبها الشاعر الإيراني أبو القاسم الفردوسى، وتروى عن ملك شريرسمى «الضحاك» لعن بسبب شره. إذ رفضت الشمس الشروق وكان من المستحيل نمو أى غذاء. الملك «الضحاك» لديه لعنة إضافية هى امتلاك أفعيين ربطتا بأكتافه. وعند جوعهما كان يشعر بألم عظيم والشىء الوحيد الذى يرضى الجوع كان أدمغة الأطفال. لذا كان يقتل كل يوم اثنين من أطفال القرى ويقدم دماغيهما إلى الأفعيين.

كاوة الحداد كره الملك بعدما ضحى بستة عشرة من أطفاله الـ ٧١ للأفعيين وعندما علم أن طفله الأخير وهو بنت. ستقتل، جاء بخطة لإنقاذها فبدلاً من أن يضحي بها، ضحى بخروف، وأعطى دماغ الخروف إلى الملك من دون أن يميز الملك الأمر، وعندما سمع الناس بخدعة «كاوة» لجأوا إلى الحيلة نفسها، فى الليل يرسلون أطفالهم إلى الجبال مع «كاوة» ليكونوا فى مأمن. وعاش الأطفال فى الجبال ونظم «كاوة» منهم جيشاً للقضاء على الملك الشرير. وبعدما أصبحت أعدادهم عظيمة بما فيه الكفاية، نزلوا من الجبال واقتحموا القلعة ووجه «كاوة» الضربة القاتلة إلى الملك الشرير «الضحاك» ولإيصال الخبر إلى أهل بلاد ما بين النهرين بنى مشعلاً كبيراً أضاء السماء وطهر الهواء من شر عهد الضحاك. ذلك الصباح بدأت الشمس بالشروق ثانية والعشب بدأ بالنمو مرة أخرى. هذه هى بداية «يوم جديد» أو «نوروز» «نه وروز» كما يتهجى باللغة الكردية.

وبذلك يكون النوروز من أقدم المناسبات الاحتفالية فى العالم. حتى قبل ظهور الزرادشتية لكن الإيرانيين فى شكل خاص والآريين فى شكل عام، أطلقوا عليه اسم «عيد» تيمناً بالأعياد الإسلامية عندما اختلطت الثقافة الإسلامية بالمووروث التاريخي وأخذ هذا الربط معنى أوضح فى العصر العباسي حين نقل مركز الخلافة فى عهد المأمون لفترة إلى خراسان الإيرانية، فذكر العيد شعراء عرب كأبى العلاء المعرى والبحترى والشريف الرضى والمتنبى وابن الرومى وأبو تمام وغيرهم، وفى الأدب العربى الحديث استخدم بعض الشعراء مناسبة نوروز رمزاً كفاحياً وتحريراً للشعوب ضد الاستعمار كبدر شاكر السياب فى قصيدته «وحى النوروز» داعياً إلى تكاتف الشعبين الكردى والعربى ضد مخططات الاستعمار فى المنطقة.

والنوروز هو اليوم القومي للإيرانيين والأفغانيين وشعوب أخرى. وهو قديم قدم تلك الشعوب ولا يعرف أحد كيف ومتى تكونت هذه المناسبة القومية الضاربة في أعماق التاريخ. وقد حُبكت حول هذا اليوم التاريخي أساطير كثيرة طريفة.

ويمكن القول أن هذا اليوم هو عنوان الشعب الإيراني وعصارة تاريخه العريق ويحمل في طياته رواسب حياة غنية لكل ما مر من تطورات هامة ومن أحداث جسام ويشبه هذا اليوم الفريد المنبثق من الطبيعة والبيئة. الشعب الإيراني نفسه في تعامله مع الأحداث حيث خضع لعاديات الدهر دون أن يفقد جوهره وتلون بلون الحقب التي توالى عليه دون أن يتخلى عن صبغته الأصلية فهو قديم جديد على مر الأيام والأعوام، ومن أسرار خلود النوروز وحظوته لدى عدد من الطوائف الإسلامية أنه يطابق عندها اليوم الأول من برج الحمل مستهل السنة الهجرية الشمسية. وهكذا نجح «نوروز» بطريقة ذكية في أن يؤمن لنفسه الديمومة التاريخية بالتوسل إلى إحدى الوقائع الإسلامية الكبرى. وأبدت أمم أخرى اهتماما بيوم ٢١ مارس (آذان) واحتفلت به كعيد الربيع، وعيد الأم.

ويمتزج «النوروز» بكل أدوار التاريخ الإيراني. الأسطوري منه وغير الأسطوري. وفي كل دور يتخذ لنفسه شكلا خاصا بذلك الدور ومتلائما معه.

وكلمة «نوروز» معناها: «اليوم الجديد» وكان الأريون القدامى أجداد الإيرانيين الحاليين يحتفلون بهذا اليوم على أنه يوم تجدد الحياة في النباتات واخضرارها من جديد ويطبقون الأفراس في كل مكان.

وكانوا يزعمون أنه يوافق اليوم الذي تم فيه خلق أول إنسان على وجه الغبراء كما كانوا يتصورون أن هذا الإنسان الأول كان يدعى «كيومرث» وكان أول ملك في العالم وكلما تقدم الزمان، امتزج النوروز بأساطير وحكايات وبجميع الديانات التي عرفها الإيرانيون ومنها الزرادشتية التي تروى أن زرادشت أبصر النور في السادس من برج الحمل أى خلال الاحتفالات بعيد النوروز التي تستمر على الأقل أسبوعا.

وبعد أن دخل الإيرانيون في دين الله أفواجا أفلح «نوروز» في الانسجام مع الأجواء الإسلامية وبلغ به الأمر أن صار له دعاء عربى يقرأ بهذه المناسبة في لحظة انزلاق الشمس من برج الجدى إلى برج الحمل. إذ يتلو عادة أحد علماء الدين من الإذاعة والتلفزيون على ملايين الإيرانيين في داخل الوطن الإيراني وخارجه الدعاء التالى:

يا مقلب القلوب والأبصار. يامدبر الليل والنهار. يامحول الحول والأحوال. حول حالنا إلى أحسن حال.

وهذه الاحتفالات النوروزية، التي تعلن تبشيرها على الناس في زماننا بأدعية عربية. تحكى الأساطير الإيرانية عنها أن ملوك الآريين الأسطوريين مثل «جمشيد البيشدادى» و«كيخسرو الكيانى» كانوا يملكون آلة مثل الكأس يرون فيها كل شئ فى العالم ويطلعون عبرها على أحوال الناس وكانت تؤتى إليهم هذه الكأس فى يوم النوروز فقط وينظرون فيها ويصرون أشياء كثيرة تخص بلدانهم وشعوبهم وكانوا يصدرون أوامرهم لتنفيذ بعض المشاريع والقيام ببعض الأعمال من جراء ما كان يتراءى لهم فى الكأس المرأة.

ولا ريب فى أن كل تلك القصص ما هى إلا أساطير الأولين ولا تؤخذ مأخذ الجد والحقيقة، لكن الباحثين الإيرانيين يستدلون من تلك الأساطير على تطورات عامة جدا مر بها الإيرانيون فى الحقب التى يسمونها ما قبل التاريخ.

وجدير بالذكر أن الزعماء الروحيين كان لهم دائما دور بارز فى احتفالات النوروز ففى زمن الساسانيين، وهى الأسرة التى حكمت إيران قبل الإسلام كان رئيس العلماء الزرادشتيين وكان يدعى «مؤبد موبدان» والمؤبد كان بمعنى رجل الدين الزرادشتى مثل القسيس و«مؤبد مؤبدان»، وكذلك «موبدان مؤبد» كان يعنى رئيسهم مثل رئيس القساوسة أو البطريك. كان رئيس العلماء الزرادشتيين هذا. يتقدم الناس صبيحة النوروز ليسلم على الملك ويقدم له الهدايا ويهنئه بهذا اليوم السعيد ثم يقبل باقى رجال الدولة وأبناء الشعب لتمنئة مليكهم بالنوروز.

وتنسب الروايات الإيرانية أحاديث عديدة إلى سلمان الفارسى وإلى شخصيات إسلامية وفقهية لها شأنها حول أهمية «النوروز» وعراقته وأن تاريخه على صلة مباشرة بأحداث كبيرة لدى الأمم القديمة والأنبياء العظام، ولكن هذه الروايات لا يمكن الاتكال عليها والاستناد إليها.

ولكن المؤكد أن «النوروز» أحرز مكانة مرموقة لدى بعض الخلفاء العباسيين فالخلافة العباسية استعانت بالخراسانيين فى كثير من الشؤون العسكرية وغير العسكرية وهؤلاء أدخلوا عادات وتقاليد إيرانية كثيرة إلى البلاط العباسى لا سيما فى عهد الخليفة العباسى المتوكل الذى أصدر تعليماته بأن يحتفل بهذا اليوم. أى بالنوروز، مثل أيام الملوك الساسانيين.

وأن يضبط يومه بصورة دقيقة ولم يمهله الأجل ليرى نتيجة توجيهاته تلك، وتحققت
الفكرة في عهد خليفته المعتضد وحسب ما نقل البيروني سميت العملية الرياضية الفلكية
تلك باسم ذلك الخليفة.

وللشاعر البحتري. أبيات أثنى فيها على الخليفة العباسي المتوكل لاهتمامه بتصحيح
وضبط تاريخ الاحتفال بالنوروز، جاء فيها:

أن يوم النيروز قد عاد للعهد.

الذي كان سنة أردشير.

أنت حولته إلى الحالة.

الأولى وقد كان حائرا يستدير.

وأردشير هذا هو أول ملوك آل ساسان.

وقد قال الشعراء العرب شعرا كثيرا في النوروز وفي يوم ثاني مثله كان يقام في مستهل
الشتاء ويسمى «المهرجان» وقد جمع المؤلف والراوية المعروف حمزة الأصفهاني مجموعة
كبيرة من تلك الأشعار في كتاب سماه «الأشعار السائرة في النيروز والمهرجان» واعتاد
الكتاب العرب والشعراء العرب على تسمية «النوروز» بالنيروز لأنه أسهل نطقا.

وأتى «أبو عثمان الجاحظ» الأديب والمحقق الشهير في «كتاب التاج» على ذكر كثير
من التقاليد العريقة لدى ملوك إيران ومنها الاحتفال بالنوروز.

وميزة هذا اليوم أنه يبدأ مع الإطلالة الأولى للربيع، ومن هذا المنطلق أخذه بعض الأقوام
من الإيرانيين ونجد مثيلا له لدى بعض الشعوب الأفريقية وبعضها يسميه بنفس الاسم
أو بما يشبهه من الأسماء كما في تنزانيا.

ويعتقد الإيرانيون أن تمسكهم بهذا اليوم وتقاليده ساعد على صيانة هويتهم القومية
والوطنية. وهذا هو السبب في ازدياد تعلق الإيرانيين به، عاما بعد عام كمظهر من مظاهر
ثقافتهم وحضارتهم.

وبعد عودة الإمام الخميني إلى إيران وقيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية كان الإيرانيون
قلقين على هذا التقليد القديم الذي احتفظوا به آلاف السنين أي الاحتفال والاحتفاء بيوم
النوروز وسرت تكهنات وإشاعات غير قليلة بشأن الموقف الذي سيتخذه الإمام الخميني
إزاء هذا التقليد الآري الفارسي الذي بقي صامدا في وجه جميع الأقوام الذي احتلوا إيران
في مختلف مراحل التاريخ.

وحل اليوم الموعود وهو نوروز عام ١٣٥٨ حسب التقويم الهجرى الشمسى الإيراني (وكان يوافق ٢١ مارس (آذار) عام ١٩٧٩م واحتشد آلاف الناس فى ملعب رياضى كبير فى العاصمة الإيرانية ينتظرون وهم على أحر من الجمر قدوم رئيس الوزراء وكان وقتها المهندس بازركان ليدلى إليهم بالخبر اليقين. فأطل المجاهر العجوز واهتز الملعب بالتصفيق الحاد ثم اعتلى الرجل منصة الخطابة وزف إلى الجماهير المتلهفة الخبر السار وهو صدور الإذن من الإمام بالاحتفال بالنوروز، وأردف قائلاً. وما أنا قد لبست بدلتى الجديدة وأتيت إليكم. فاشرايت الأعناق لتتملى رئيس وزراء الثورة فى ملايس العيد.

وهكذا ويبدو واضحاً الآن مدى تمسك الإيرانيين بتقاليد هذا العيد وبعاداتهم القومية بأكثر التقاليد القديم أقدامه على أرض النظام الجديد. مما كانوا يفعلون بالماضى خوفاً من أن تذوب تلك التقاليد فى خضم الحماسة الثورية والتطلعات الشمولية الطموحة.

ولكن حكومة الجمهورية الإسلامية الإيرانية غدت بدورها تهتم بهذا التقليد ويخطب بهذه المناسبة قائد الثورة ورئيس الجمهورية ويوجهان كلمات للناس لتهنئتهم بهذا اليوم وحثهم على المحافظة على مكاسب الثورة والذود عن كيان الجمهورية الإسلامية.

وسقوط الجدار الحديدى وانحيار الاتحاد السوفيتى وقيام دول إسلامية حديثة منبثقة من النظام المنهار. هذه التطورات أحييت تقاليد جمة قديمة لدى الأقوام المستقلة حديثاً ومنها احتفالات النوروز التى كانت سائدة فى تلك الأصقاع من غابر الأزمان. وصاروا ينافسون الإيرانيين فى الاحتفاء بهذا اليوم الذى يعتبر عيد الربيع وازدهار الطبيعة وتجدد شبابها. والتاريخ يحدثنا عن شعراء عظام قاموا فى خوارزم وخراسان وما وراء النهر وهى المناطق التى تدعى حالياً أفغانستان وأوزبكستان وقازاقستان وتركمنستان وتاجيكستان وقرغيزستان ونظموا مئات القصائد الغراء باللغة الفارسية وأحياناً العربية فى الإشادة بيوم النوروز.

